أنجبتني أمي..

أظن أن هذه هي البداية الطبيعية بالنسبة لتاريخ كل شخص، على الرغم من أنني أذكر جيداً الكثير من الأحداث، التي حدثت قبل مولدي، عندما كنت أرقد منعماً هادىء البال، في رحم أمـي، لا أفكـر في غذاء أو كساء، أو مسكن، وكل شيء يصلني بإنتظام ودقة وجودة..

آه يا لها من أيام!

ولكن دعونا ننسى – أو نتناسى – تلك الأيام السعيدة، قبل أن تملاء الحسرة قلوبنا، ونتحدث عـن أيامنا في الدنيا..

كل ما أذكره عن البداية هو أن وصولي إلى الدنيا لم يرق لي كثيراً، فقد إنفجرت باكياً، وحاولت أن أركل من حولي، وأضربهم، معترضاً على إخراجي من منزلي، الذي عشت فيه تسعة شهور كاملـة، ولكن الجميع تجاهلوا إعتراضي تماماً، وراحوا يتبادلون التهنئة في سعادة، وكأن رأيي هذا لا قيمة له، وافترضت إحدى الزائرات أن بكائي يعود إلى عامل الجوع، وحاولت الإعتراض على هذا أيضاً، ولكنهم أغلقوا فمي بمصدر غذاء، قاومته في البداية، لأعلن أن هذا ليس سـبب الـرفض، ولكـن إصرارهم جعلني أستسلم، وأرضع غذائي في صمت..

وأدركت أن الوقت لم يحن بعد للإعتراض، ولا لأن تتكون لدي شخصية مستقلة، فـآثرت الـصمت، إنتظاراً للحظة المناسبة..

وطوال الأشهر التالية لم يستمع إلي أحد، كلما بكيت معترضاً، أو محاولاً إبداء رأيي، وأنـا أشـعر بالغيظ، لأنني لا أستطيع التعبير عن موقفي، وبدا من الواضح أنني لـن أمتلـك تلـك الشخـصية المستقلة، التي أحلم بها، إلا عندما أتعلم الكلام..

وانتظرت..

ومع مرور الوقت، رحت أكتسب القدرة على الكلام، فأنطق كلمات منفردة، أو مجتمعـة، وأصـبحت هذه الكلمات واضحة، واستطعت أن أصنع جملاً مفهومة، كان الجميع يصفقون سـعادة بهـا فـي البداية، حتى أنني تصورت أن لحظة إبداء الرأي قد أتت، ولكن..

فجأة أصبح كلامي سخيفاً وثقيلاً بالنسبة لهم، وكلما أردت توضيح وجهة نظر، أو مناقشة أمر مـا، صرخت أمي تطالبني بالصمت، وثار والدي، لأنه مشغول، وضربني شقيقي الأكبر، أو يتطلـع إلـي الجميع بسخرية، ويقولون في إستخفاف:

- كلام عيال..

وابتلعت غضبي، ولذت بالصمت مرة أخرى، وأنا أتساءل: لماذا كانت سعادتهم بتعلمي الكـلام، مـا داموا يرفضون الإستماع إلي دائماً..

والتحقت بالدراسة، ولم يتغير الأمر كثيراً، بل زاد عدد الذين يعترضون على حديثي، ويسفهون آرائي، فلم يعد من المسموح أن أتحدث في الفصل، أو بعد الفصل، أو في أثناء عمل الواجبات المدرسية، أو حتى بعد الإنتهاء منها..

لم يعد لي رأي خاص على الإطلاق..

إنهم يضعون المقررات الدراسية، ثم يعدلونها، ويضيفون إليها بعد بدء الدراسة، ثم يحذفون ما أضافوه قبل منتصف العام، ويغيرون المقررات كلها قبل الإمتحانات بأيام، ثم يحذفون عاماً من سنوات دراستي الإبتدائية، ويضيفونه إلى الثانوية العامة، ويقسمون الطلاب إلى أقسام علمية وأدبية، ثم يقسمون طلاب المواد العلمية إلى قسم للعلوم وآخر للرياضيات، وفجأة يعلنون أن هذا كله خطأ، ويبدأون من البداية، دون أن يأخذ أحدهم رأيي، ولو مرة واحدة فيما يفعلونه بي..

ولكن لكل شيء نهاية..

وانتهت مرحلة دراستي الثانوية، وحصلت على شهادتها بتفوق، وأدركت أن مرحلة شخصيتي المستقلة قد حانت، فأعلن بكل حسم أنني سألتحق بكلية الحقوق، على الرغم من المجموع المرتفع، الذي حصلت عليه، لأنني أرغب في أن أصبح محامياً شهيراً..

ولكن النيران تشتعل في منزلي..

أبي يصرخ في وجهي، ويتهمني بالغباء، وأمي تلطم خديها في حسرة، وتولول ناعية سوء حظها، وجدي ينهار، ويصاب بأزمة قلبية، وشقيقي الأكبر يقترح بكل جدية إيداعي إلى مستشفى الأمراض العقلية، لأنني أرفض الإلتحاق بكلية الطب، التي يلتحق بها أصحاب المجاميع المرتفعة عادة..

ولا يصبح أمامي سوى الإستسلام..

ودخول كلية الطب..

وفي الكلية أدركت منذ البداية أنها ليست – بالتأكيد – مرحلة تكوين شخصية قوية، أو مستقلة، أو أية شخصية على الإطلاق، فالكل يطالبني بحفظ المقررات عن ظهر قلب، دون مناقشة أو إستفسار، بغض النظر عن الفهم والتفكير، حتى أنجح في الإمتحان، وإلا..

ولأنني خبير في هذا الأسلوب، فقد نجحت في كل سنوات الدراسة بكلية الطب، وحصلت على شهادة البكالوريوس بدرجة جيد، وتصورت أن هذا هو آخر المطاف، وأنني سأصبح أخيراً طبيباً مرموقاً، يشار إليه بالبنان، ويقف له الجميع إحتراماً، وله رأي مستقل، وشخصية متميزة، و...

ولكن هذا لم يحدث..

لقد أصبحت مجرد طبيب إمتياز، لا يشعر، أو يأبه به أي مخلوق في المستشفى، حتى الممرضات والمرضى، والكل يعتبرني مصدر خطر، ينبغي تفاديه، وتجاهل أفكاره وآرائه تماماً..

وتنتهي فترة الإمتياز، وتبدأ مرحلة التكليف الإجباري، فأتقدم بطلب لنقلي إلى أقاصي الصعيد، متصوراً أنني سأحظى هناك بالشخصية المستقلة، والرأي المحترم، نظراً لندرة الأطباء الشديدة هناك..

ولكن حتى المسئولين في الوزارة يتجاهلون رغبتي، وينقلونني إلى "الإسكندرية" التي تكتظ بالأطباء، ولست أدري لماذا فعلوا هذا؟..

وفي "الإسكندرية" ألتحق بمستشفى ضخم، شديد الإزدحام بالمرضى والأطباء، ويتجاهلني الجميع، ولا أجد الوقت أو المكان لإثبات شخصيتي، ولكنني ألتقي هناك بفتاة لطيفة، يخفق لها قلبي، فأنسى الطب والأطباء، وأتقرب إليها، وأطلب منها مقابلة والدها، ولكنها تخبرني أن هذا لن يفيد، وأن الخطوة العملية هي مقابلة صاحبة الكلمة الأخيرة في البيت..

أمها..

وأقابل الأم، التي تنظر إلي من أسفل، وتقلب شفتيها في إمتعاض، وتهز رأسها في حسرة، ثم تسألني عن راتبي، ودخلي الشهري، ومؤهلاتي، فألتقط نفساً عميقاً، وأجيب أسئلتها..

وما أن تسمع الأم الجواب، حتى تصرخ في ذعر، وتضرب صدرها بكفها بإرتياع، وتسقط فاقدة الوعي، فأسرع بإنعاشها، وزوجها يبتسم إبتسامة خبيثة مستشفية، حتى إستعادت وعيها، فرسم الجزع واللهفة على ملامحه، وتظاهر بالخوف الشديد عليها..

وبدأت جولة جديدة من المباحثات، إستطعت إقناع الأم خلالها، أن أبي سوف يساعدني مادياً، وأنني سافتتح (بإذن الله) عيادة طبية، للحصول على مزيد من الدخل، حتى وافقت الأم في حسرة، لأن إبنتها توافق على الإرتباط بي..

وتمت الخطبة في حفل عائلي بسيط، إكتفت أمي وحماتي فيه بتبادل بعض عبارات التبكيت والتسخيف الملتوية، دون أن تتشابكا بالأيدي، إحتراماً للمناسبة..

وبعد كفاح مرير، للحصول على شقة صغيرة، ودفع الشبكة والمهر وخلافه، حان موعد الزفاف، وأبلغتي حماتي أنها ترغب في عقد مؤتمر قمة مصغر، لمناقشة تفاصيل حفل الزفاف، فأذهب إليها صاغراً مستسلماً، لتملي علي شروطها، كأية دولة منتصرة، حتى نبلغ ثوب الزفاف، فتطالبني بأن يكون مرتفع الثمن للغاية، حتى يتجاوز تكلفة حفل الزفاف كله..

ولأنني غبي، ولم أستوعب القاعدة بعد، فأنا أسألها في سذاجة وبراءة عن سبب إنفاق كل هذا المبلغ لشراء ثوب زفاف، لن يتم إرتدائه سوى مرة واحدة..

وهنا أيضاً تصرخ حماتي، وتمصمص شفتيها، وتتحسر على إبنتها، ثم تبدأ في ذكر ثمن ثوب زفاف إبنة عمها، وإبنة خالتها، وإبنة الجيران، وحتى إبنة "سبارتاكوس" محرر العبيد..

وأستسلم كالمعتاد..

ويتم الزفاف..

ومنذ اللحظة الأولى أردت أن أذبح القط كما يقولون، ولكن زوجتي، التي بدت رقيقة طوال فترة الخطوبة، ذبحت قبيلة من الأسود، وأغرقتني بدمها، وأثبتت لي أن قلب القدرة على فوهتها، يجعل الأم مثالاً لإبنتها..

وبدأت أحلامي في الشخصية المستقلة تنكمش وتتلاشى..

وأنجبنا إبننا الأول..

واختارت له زوجتي إسم جدها، على الرغم من أنني أردت منحه إسم جدي أنا..

ثم قررت حماتي أن تقيم حفل "السبوع"..

وسألت في سذاجة:

- هل "السبوع" عادة إسلامية؟

وجاء الجواب على هيئة نظرة صارمة من حماتي، وشهقة من زوجتي، و...

وكان حفل "السبوع" كبيراً، إلتهم معظم مدخراتي كالمعتاد..

ومضت السنوات على النمط نفسه، وأصبحت فكرة الشخصية المستقلة مجرد ذكريات، إستعادها ذهني وأنا على فراش الموت، فإبتسمت، وبدأت أضحك بصوت مرتفع، جعل الورثة يتطلعون إلى في دهشة، حتى لفظت أنفاسي الأخيرة بينهم، وهم يناقشون فكرة توزيع الثروة بالتساوي، ويحسبون الأرقام بالآلة الحاسبة، دون أن ينتبه أحدهم لموتي، قبل ربع ساعة على الأقل، و...

وماذا تنتظرون بعد كل هذا؟..

لقد إنتهت رحلة البحث عن شخصية مستقلة، و...

وانتهت المذكرات.

* * *